(المحاضرة الثانية)

❖العثمانيون- نشأتهم وتوسعهم في الوطن العربي:

يختلف المؤرخون في أصل العثمانيين وسبب ذلك يرجع الى عاملين أساسيين هما: **الأول** في فقدان المصادر التي تعود الى تلك الفترة و**الثاني** كثرة ما علق بهذه المسالة من اساطير وخرافات لذلك فقد تعددت الروايات في هذا الشأن.

ومن أبرز تلك الروايات: ان جد العثمانيين الأعلى وهو **(سليمان شاه)** ينتمي الى اسرة تركمانية اسمها **(قابي او كابي)** وكان يحكم منطقة **(ماهان)** شمال شرق إيران، وقد فر من امام الزحف المغولي في مطلع القرن الثالث عشر متجها نحو الأناضول الا انه غرق اثناء عبوره الفرات فانقسمت اسرته الى **قسمين:** قسم فضل العودة من حيث اتى اما القسم الاخر فكان بقيادة **(ارطغرل)** الذي قرر الاستمرار في الاتجاه نحو الأناضول وتذكر الرواية ان ارطغرل شاهد في طريقه جيشين مشتبكين وهما جيش مغولي والأخر جيش سلطان قونية السلجوقي **(علاء الدين الأول ١٢١٩-١٢٣٥)** فساند جيش الأخير والذي انتصر بفضل تلك المساعدة فكافاه علاء الدين على مساعدته بأقطاعه بقعة من دولته في غرب الأناضول وهي سهول سكود على الحدود البيزنطية.

ولما توفي ارطغرل سنة ١٢٨٨ أصبح عثمان اكبر أولاده مكانه ولم يلبث هذا ان حصل على امتيازات جديدة من قبل السلطان علاء الدين وبعد وفاة الأخير عام ١٣٠٠ استأثر عثمان بجميع الأراضي التي حصل عليها واخذ بالتوسع على حساب الدويلات المجاورة له.

❖ماهي الأوضاع التي ساعدت على التوسع:

استمر خلفاء بني عثمان بالتوسع مستغلين أوضاع بيزنطية التي شعلت الكثير من القلاقل والفتن بالعاصمة وفي البلقان وبالصدام المستمر مع اعدائها من امارات الثغور

الإسلامية الواقعة على حدودها لذا لم تستطع التحرك ضد العثمانيين الذين استولوا على أدرنه وجعلوها عاصمة لهم فضلا عن تراقيا ومقدونيا وبلغاريا وبلاد الصرب واستمر التوسع العثماني في أوربا والذي توج عام ١٤٥٣ بسقوط القسطنطينية بأيديهم في عهد السلطان محمد الثاني المعروف بالفاتح (١٤٥١-١٤٨١).

في عهد السلطان سليم الأول الذي تولى الحكم عام ١٥٢١ على أثر خلع ابيه بايزيد الثاني حدث انقلاب في استراتيجية الدولة العثمانية اذ توقف زحفها على حساب الغرب الأوربي اوكاد يتوقف واتجهت نحو الوطن العربي ومهما تعدد الآراء في تقليل الظاهرة **فان هناك أسباب لهذا التوسع وهي:**

١- ان موقف العثمانيين في اوربا أصبح منذ أوائل القرن السادس عشر الميلادي موقفا دفاعيا أكثر منه هجوميا فكان لابد لهم ان يبحثوا عن ميادين جديدة للتوسع.

٢- ظهور الدولة الصفوية في إيران: اذ يعتقد فريق من المؤرخين ان الغزو العثماني للأقطار العربية ما هو الا مرحلة من مراحل الصراع بين الدولتين العثمانية والصفوية بعقد السيطرة على منطقة الشرق الأدنى وكذلك قيام الدولة الصفوية والمماليك بإيواء اخوة سليم الأول الذين كانوا يدعون بحقهم بالعرش العثماني فقاموا بعدة محاولات للسيطرة على السلطة والقضاء على سليم الأول.

٣- الغزو الأوربي للوطن العربي: شهدت بداية العصور الحديثة في القرنيين الخامس عشر والسادس عشر حركة التوسع الأوربي والتي شملت مختلف مناطق العالم وقد تركز الصراع بين العرب والاوربيين في منطقتين الأولى في الطرف الشمالي الغربي من الساحل الافريقي المتمثل بالبحر المتوسط والمحيط الأطلسي والثاني في المياه العربية الجنوبية المتمثلة بالبحر الأحمر والخليج العربي والمحيط الهندي.

❖ أوضاع المشرق العربي قبل الغزو العثماني في القرن (١٦) الميلادي:

يؤرخ سقوط بغداد في ايدي المغول (١٢٥٨م – ٦٥٦هـ) بداية لعهد جديد في تاريخ المشرق العربي والذي انشطر الى قسمين القسم الشرقي وهو العراق الذي فقد استقلاله وأصبح ولاية مغولية تعاني ما تعانيه من التخلف في شتى النواحي الحياة وقسم غربي والذي يتألف من الدولة المصرية السورية الخاضعة لسيطرة المماليك

ووقف القسمات موقف العداء أحدهما من الاخر يحاول المغول فتح الدولة المصرية السورية ويسعى المماليك لرد عدوان المغول وقد تحقق لهم ذلك بعد جهود.

وبسبب هذا العداء تقطعت بين العرب أسباب التبادل التجاري والثقافي وانهكت قواهم وضربت مدنهم كما شهد المشرق العربي في تلك الحقبة بدايات الغزو الأوربي والمتمثل بالبرتغاليين الساعيين للحصول على مواقع استراتيجية في هذه المنطقة لغرض السيطرة على طرق التجارة واحتكار وتصدير البضائع لأوربا وقد تركزت نقاط الصراع بين البرتغاليين والعرب في المشرق العربي في المياه العربية الجنوبية بالبحر الأحمر والخليج العربي.

❖ اسقاط الدولة المملوكية في الشام ومصر والحجاز واليمن:

حكم المماليك **مصر والشام والحجاز** ومن هنا اعتقد العثمانيون بان سيطرتهم على دمشق والقاهرة ومكة المكرمة والمدينة المنورة ستجعل في أيديهم امكانات اقتصادية وسوقية استراتيجية ودينية كبيرة.

بعد انتصار العثمانيين على الدولة الصفوية في موقعة **(جالديران)** سنة ١٥١٤ للتوسع على حساب المماليك في الشام وبسط سيطرتهم على الحوض الشرقي للبحر المتوسط وابعاد نفوذ البنادقة والجنوبيين عنه، وتامين التجارة العثمانية والاقتراب من البحر الأحمر المؤدي الى المحيط الهندي حيث يتغلغل البرتغاليون هناك كما ان سيطرتهم على البحر المتوسط تساعدهم على مد نفوذهم الى المغرب العربي.

اتسمت العلاقات بين العثمانيين والمماليك في بادئ الامر بنوع من التفاهم غير انها ما لبثت ان عصفت بها الخلافات حيث أدى التوسع العثماني على حساب الامارات

المجاورة ومنها امارة **(ذي القدر)** في الشام الى الاحتكاك بينهم وبين المماليك ، اما السبب المباشر لإسقاط الدولة المملوكية واحتلال الشام فهو تهديد العثمانيين لحدود الدولة المملوكية عندما هاجموا امارة ذي القدر وضموها اليهم بحجة عرقلتها لسير جيوشهم اثناء تقدمها لمحاربة الصفويين.

وهكذا بدأت الحرب بين الدولتين وجرت معركة حاسمة في ٢٣ اب ١٥١٦ عند سهل **(مرج دابق)** بالقرب من حلب واسفرت عن سيطرة العثمانيين على بلاد الشام وكان للمدفعية العثمانية اثر كبير في تحقيق الانتصار على المماليك الذين بقوا حتى ذلك الوقت متمسكين بأساليب القتال التقليدية.

كان السلطان العثماني سليم الأول يعتقد بان معركة مرج دابق ستؤدي الى انهيار الدولة المملوكية وسقوطها نهائيا في قبضته لذلك ارسل الى **(طومان باي)** نائب السلطان المملوكي في مصر كتابا يهدده فيه ويطلب منه الاعتراف بالسيطرة العثمانية وعرض عليه ان يتولى حكم مصر نيابة عنه ولكن طومان باي رفض ذلك واصر على المقاومة ويبدو ان السبب الرئيسي لرفضه يكمن في ضغط الامراء المصريين عليه آنذاك خشية ان يثبت مركزه كسلطان في مصر.

قرر السلطان السيطرة على مصر ودخل الدلتا وباغت طومان باي عند الريدانية وفي كانون الثاني ١٥١٧ حدثت المعركة التي انتهت بهزيمة طومان باي ودخول الجيش العثماني مدينة القاهرة وسقوط الدولة المملوكية.

بقي السلطان سليم في مصر بضعة اشهر والتقى هناك بمندوبي مدينة البندقية وعقد معهم معاهدة منحتهم امتيازات تجارية في مصر وقد اتخذت هذه المعاهدة فيما بعد أساسا لمعاهدات الدولة العثمانية مع الدول الاوربية الأخرى فيما يتعلق بالامتيازات الاقتصادية.

عندما سقطت دولة المماليك بيد العثمانيين كان من الطبيعي ان يصبح الحجاز تابعا للدولة العثمانية فلقد ارسل الشريف بركات شريف مكة ابنه الى القاهرة ليقدم فروض الطاعة والولاء للسلطان العثماني اقرارا له بالسيادة على الحجاز وقد استقبل السلطان سليم ابي نمي

وإعطاء تفويضا بحكم والده وساعد هذا التفويض الشريف بركات في إبقاء نفوذ الاشراف على ما كانوا عليه أيام المماليك.

اما **اليمن** فقد دخلت في حوزة العثمانيين سنة ١٥١٧ حين طلب السلطان سليم الى إسكندر الجركسي بان يبقى واليا على اليمن ويحكم باسم العثمانيين ولكن النفوذ العثماني لم يستتب في اليمن نتيجة مقاومة اليمنيون للحملات العثمانية التي أرسلها السلاطين العثمانيون منذ ١٥٣٩ لليمن. ومع ان سليمان باشا استولى على عدن وأعاد اليمن الى حظيرة الدولة العثمانية الا انه اضطر الى عقد صلح مع امام اليمن يقضي بان يحكم البلاد باسم السلطان العثماني. وهكذا لم يسيطر العثمانيون على اليمن الا بعد سنة ١٨٧٢ والذي ساعدهم في ذلك فتح قناة السويس بفضل قواتهم هناك.

❖ استيلاء العثمانيين على العراق سنة ١٥٣٤

ترك السلطان سليم الأول بعد انتصاره في موقعة جالديران سنة ١٥١٤ احد قادته وهو فرهاد باشا لإتمام احتلال الولايات المتاخمة للحدود العثمانية فامر فرهاد باشا باي قلي محمد باشا بالسيطرة على ماردين والرها والموصل وسنجار وتلعفر وجزيرة ابن عمر والعمادية واربيل وكركوك وقد تم احتلالها سنة ١٥١٥ غير ان الحكم العثماني في هذه المناطق ظل قلقا بسبب الموقف المعارض الذي اتخذه السكان من التوسع العثماني آنذاك.

اما العراق الأوسط والجنوبي فقد بقي تحت السيطرة الصفوية وتدهورت أوضاع السكان الاجتماعية والاقتصادية والثقافية نتيجة لسياسة الإهمال التي اتبعها الصفويين فقد كثرت الأوبئة واهملت مشاريع الري وظل نظام الري يعاني كثيرا من الفوضى.

حاول السلطان سليمان القانوني تنفيذ احتلال العراق باستمالة بعض حكامه المحليين لكن هذه الخطوة تسببت في جعل العراق ساحة للصراع العثماني الصفوي، إذ حاول السلطان سليمان القانوني استمالة احد الطامعين في الحكم (ذو الفقار) بالمجيء الى السلطة وعزل حاكم العراق الصفوي آنذاك ولكن ذو الفقار ادرك بعد تخلصه من الحكم الصفوي سنة

١٥٢٧م انه لا يستطيع الاحتفاظ بالحكم فمال الى العثمانيين كثيرا اما الشاه طهماسب الصفوي فقد قام بهجوم كبير على العراق وتمكن من قتل ذو الفقار وأعاد الحكم الصفوي اليه.

شجعت هذه الاحداث العثمانيون على ان يتولوا بأنفسهم السيطرة على العراق ففي سنة ١٥٣٤م تحرك السلطان سليمان القانوني على راس جيش كبير متجها نحو العراق فانسحبت الحامية الصفوية من بغداد عند سماعها بأنباء وصول الجيش العثماني . وهكذا قد دخل القانوني بغداد دون ان يواجه أي مقاومة تذكر.

بقي السلطان سليمان القانوني في بغداد بضعة اشهر عمد فيها الى تنظم الإدارة فارسل محمد باشا الى الموصل لتثبيت الحكم العثماني المباشر عليها ووافق على تعيين الشيخ (راشد بن مغامس) حاكم البصرة واليا عليها على ان يكون تابعا لباشا بغداد . ثم عين حاكم ديار بكر السابق سليمان باشا الطويل اول والي عثماني على بغداد.

حاول العثمانيون بعد سيطرتهم على العراق توسيع نفوذهم الى منطقة الخليج العربي فاحتلوا البحرين سنة ١٥٥٥ لكن جاء التوسع متأخرا لقوة النفوذ البرتغالي في هذه المنطقة.

لم تكن الأوضاع السياسية في العراق هادئة عقب سيطرة العثمانيين عليه وانما تميزت بكثرة الثورات والانتفاضات واستمرت محاولات الصفويين بالسيطرة على العراق حتى تم عقد صلح بين الدولتين العثمانية والصفوية وعقد الطرفان معاهدة **(زهاب)** سنة ١٦٣٩، قسمت وفقها مناطق النفوذ فبقي العراق تحت السيطرة العثمانية.

❖ السيطرة العثمانية على اقطار المغرب العربي:

كانت اقطار المغرب العربي تعيش حالة من التفكك السياسي والتدهور الاقتصادي وخاصة بعد ظهور الاطماع الاسبانية البرتغالية فيها مما جعل السلطان سليم الأول بان يأخذ على عاتقه مهمة بناء قوة بحرية تتولى انتزاع السيادة البحرية من الدول الاوربية في الحوض الغربي للبحر المتوسط، وقد عاصر مشروعات الدولة العثمانية في هذه المنطقة

ظهور حركة عامة بين قادة البحر المغاربة تستهدف العمل على حماية موانئهم وسواحلهم من الاطماع الاوربية والعمل على تامين وصول المهاجرين العرب من الاندلس بعد سقوط الدولة العربية فيها عام ١٤٩٢.

لقد كان من أبرز أولئك القادة البحاران المغربيان عروج بن يعقوب واخيه خير الدين المعروف **(ببار بروس أي ذو اللحية الشقراء)** اللذان كانا يمتلكان اسطولا قويا يعمل في البحر المتوسط فتولى عروج منذ سنة ١٥١٠ إدارة جزيرة **(جربة)** وهي جزيرة صغيرة تقع في خليج فاس شرقي تونس بموافقة السلطان التونسي عبد الله الحفصي مقابل دفعه خمس الغنائم التي يحصل عليها من جراء الغارات التي يشنها على السفن الاوربية.

اتجهت انظار عرب المغرب الى عروج واخيه لإنقاذهما من الاعتداءات الأجنبية وكانت بجاية في طليعة المدن التي استنجدت بالأخوين لتحريرهما من الاسبان وربما كان ذلك بسبب كونها اكبر ميناء في شرق الجزائر . وقد لبى الاخوين الدعوة لكنهما اخفقا لصعوبة حصونها لذلك احس الاخوين بضرورة البحث عن قاعدة جديدة لنشاطهما فوقع اختيارهما على ميناء جيجل الجزائري الذي يقع غرب بجاية وقد تمكن الاخوان من تحريره وجعله مركزا لنشاطهما.

اتصل عروج بعد ذلك بالسلطان سليم الأول وارسل اليه جزءا من الغنائم وشرح له طبيعة المخاطر التي يتعرض لها المغرب العربي وبين له حاجته الى الدعم والتأييد، وقد اغتبط السلطان سليم بهذا العرض وبعث الى عروج اسطولا مؤلفا من (١٤) سفينة مع امدادات من الرجال والسلاح والذخيرة.

قرر عروج توجيه نفوذه لاحتلال ميناء الجزائر وذلك ان احتلال الجزائر سيجعله قادرا على انقاذ بجاية وسواها من المدن الساحلية التي كانت ترزح تحت النير الاستعماري الاسباني.

كما ان السيطرة على الميناء ستكون ببداية خطوة على تأسيس حكم جديد في الجزائر تكون السلطة فيه له ولأخيه، وعليه اتصل عروج بأخيه خير الدين وكان في وقتها بتونس

فطلب منه تجديدي المتطوعين الراغبين بالقتال ضد الاسبان وبعد ان نجح الاخوان في تحطيم الحاميات الدفاعية التي أقامها الاسبان وحرروا الميناء بأواسط عام ١٥١٦م واتجه نحو التلمسان وتناس والمدية وميليانا في جنوب مدينة الجزائر بتحريرها من السيطرة الأجنبية حاول عروج انشاء دولة في الجزائر قادة على تحقيق وحدة المغرب العربي الا ان هذه الاحلام تلاشت عندما أدرك الاسبان ان طموح عروج باتت خطر للوجود الاستعماري في المنطقة كلها فاصدر الملك شارل الخامس أوامره الى حاكم وهران الاسباني بالتقدم نحو تلمسان وقتله وتشتيت اتباعه عام ١٥١٨.

ادرك خير الدين الصراع ضد الاسبان بعد مقتل أخيه عروج انه ضعيف سياسيا وعسكريا فارسل بعثة الى إسطنبول لطلب المساعدة من العثمانيين فرحب السلطان بذلك وارسل اليه قوة انكشارية مؤلفة من ٦ الاف رجل بمدافعهم وعتادهم عام ١٥١٨ فنجح خير الدين في احتلال قلعة البيلون يوم ٢٧ أيار ١٥٢٩ بعد سلسلة من المعارك مع الاسبان وباحتلالها ضمن امر الجزائر ويعد ذلك في الحقيقة بداية السيطرة العثمانية على المغرب العربي.

ثم قار خير الدين بإعادة بناء الاسطول الجزائري فاستعد لاقتحام تونس في ١٨ نيسان ١٥٣٤ استولى بسهولة الى مدينو تونس بعد ان اغتنم الثورة التي نسبت فيها ضد حاكمها ابي محمد الحفصي حليف الاسبان فسرعان ما استنجد الحفصي بالإسبان الذين هرعوا لمساعدته وحاصروا قوات خير الدين واضطروا الانسحاب الى ميناء عنابة ثم الى ميناء الجزائر واحتلوا الاسبان مدينة تونس يوم ٢١ تموز ١٥٣٥م واعادوا الحفصي الى عرشه بعد ان عقدوا معه اتفاقا ضمن لهم مصالحهم في تونس **وكان من ابرز بنود الاتفاق:**

١- اطلاق سراح جميع الاسرى الاوربيين دون دفع أي فدية.

٢- ضمان حرية التجارة للأوربيين والامتناع عن اعمال القرصنة.

٣- على السلطان التونسي دفع جزية سنوية للإسبان مقدارها ١٢ الف قرش.

٤- ان يتعهد سلطان تونس بتقديم هدية سنوية مكونة من **١٢** حصانا **و١٢** مدفعا دليلا على الاستمرار بالاعتراف بالسيادة الاسبانية عليه.

٥- تتعهد اسبانيا لحماية تونس ضد أي هجوم اجنبي.

٦- يبقى احتلال تونس لحين هدوء الحال فيها.

بالغ الاسبان في الانتقام من التونسيين بسبب انضمامهم الى قوات خير الدين فاستباحوا المدن التونسية ثلاث أيام وقتلوا قرابة ٦٠ الف من المواطنين التونسيين فاندلعت حينها الانتفاضات الشعبية ضد الحاكم الحفصي في القيروان ومدن أخرى فاضطر الى الفرار وعين التونسيين ابنه أبا العباس احمد والي عنابة لتولي الحكم.

وجه الاسبان اسطولهم الى جزيرة جربة سنة ١٥٦٠ فاصطدم بالأسطول العثماني ودحره وكان من بين الاسرى الاوربيين الكونت سيكالا الذي اعلن اسلامه وعرف فيما بعد باسم **(سنان باشا)** وكان له دورا كبيرا في بناء وقيادة الاسطول العثماني وتحرير تونس من السيطرة العثمانية أواخر سنة ١٥٧٤ ومنذ ذلك الوقت حتى عام ١٥٧٨ غدت تونس ولاية عثمانية يشرف على اداراتها والي الجزائر.

اما **ليبيا** فقد احتل الاسبان مينائها **(طرابلس)** عام ١٥١٠م، ثم في عام ١٥٣٥ سلمت الى فرسان القديس يوحنا بعد ان اشترطوا عليه الدفاع ضد العرب فكان هذا التسليم ضمن اتفاقية طالب فيها الفرسان من شارل الخامس فسلم مالطة لتكون قاعدة لهم يغزون منها الوطن العربي.

في اعقاب تولي خير الدين قيادة اسطول العثماني سنة ١٥٣٣ وضع خطة للاستيلاء على طرابلس الا ان التدخل الاسباني بعد سنتين أدى الى فشل الخطة.

وفي ١٨ أيلول ١٥٥١ نجحت السفن العثمانية التي تجمعت في شرق البحر المتوسط من السيطرة على طرابلس وتصبح ولاية عثمانية اخرى.

اما **إقليم برقة** فكان تحت السيطرة العثمانية منذ استيلائهم على مصر وقد اعلن زعماء **إقليم فزان** ولائهم للعثمانيين.

تولى حكم ليبيا عدد من الولاة العثمانيون، كان **(دار غوث باشا)** اشهرهم وهو الذي وسع السيطرة العثمانية لتشمل السواحل الليبية بكاملها، كما انشأ فرق الانكشارية هناك، الا ان الاهتمام العثمانيين في ليبيا ظل عسكريا بالدرجة الاولى واقتصر نفوذهم على المدن الساحلية.

اما **مراكش** الواقعة الى الركن الغربي من المغرب العربي فقد ظلت بعيدة عن متناول ايدي العثمانيين وحكمهم المباشر وذلك بسبب تنامي قوة الدولة السعدية الناشئة منذ منتصف القرن السادس عشر، وعلى الرغم من الجهود التي بذلها القادة العثمانيون ومنهم **(بكربكي)** الجزائري منذ عام ١٥٦٨م لإخضاع مراكش الا ان ذلك لم يتحقق لسببين مهمين:

أولهما: النصر الكبير الذي حققه المغاربة على البرتغاليين في معركة **(وادي المخازن)** سنة ١٥٧٨م الذي جعلهم محط تقدير السلطان العثماني ورغبته في ايقاف الحملات الموجهة ضد مراكش.

وثانيهما: ظهور شخصية قوية حاكمة في المغرب وذلك هو **(المنصور السعدي)** الذي سعى للمحافظة على استقلال مراكش وعدم الخضوع للسيطرة العثمانية.

لقد اتسم تأريخ العثمانيون في المغرب العربي بظاهرة ضعف السيطرة على ولاياته وبخاصة بين القرنيين السابع والتاسع عشر الميلادي، وذلك لبعد المسافة التي تفصل بين هذه الولايات وعاصمة الدولة العثمانية.

وايضا ضعف الادارة وسيطرتها على القوة البحرية في تلك الولايات، لذلك فقد لجأت هذه الولايات الى تنظيم ادارة الحكم والحرب فيها على نحو يكفل لها الدفاع عن كيانها في مواجهة الغزو الاوربي.

فقامت في **طرابلس وتونس والجزائر** أسر حاكمة تدين بالولاء الاسمي للدولة العثمانية ويتوارث اعضائها الحكم فيما بينهم. ففي طرابلس قامت **(الاسرة القرمانية)** وحكمت من عام١٧١١م وحتى ١٨٣٥م.

اما في **تونس** فقد ظهرت **(الاسرة الحسينية)** التي تولت الحكم منذ عام ١٧٠٤م الى ١٩٥٦م، وفي **الجزائر** اعتاد قادة البحر على اختيار حاكمهم من بينهم يسمونه **(الداي)**، اما **مراكش** فقد استعصت على العثمانيين بفضل المقاومة التي ابدتها اسرة **(الشرفاء العلويين)** التي ما تزال تحكم حتى اليوم.